بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

ظنَّ بعضُ من قرأوا هذا الكتاب فى طبعته الأولى أننى أنكر به الصلةَ بين الشعر الأموى والشعر الجاهلى وأزعم أنها كانت منبتَّةً منقطعة . ولست أدرى من أين جاءهم هذا الظن ، وأنا لا أنكر هذه الصلة ولا أدفعها عن الشعر فى العصر الأموى ، بل أنا لا أنكرها ولا أدفعها عن الشعر العربى فى جميع عصوره التالية ، فقد ظلت الصلةُ قائمةً متينة بين عصوره وأقاليمه المختلفة وبين الجاهلية وحياةِ العرب البدوية القديمة ، فهى تفرض نفسها على الشعر والشعراء ، لا من حيث الصيغ والأخيلة والصور فحسب ، بل أيضًا من حيث الموضوعات والأغراض وذكر الأطلال والرسوم ووصف الإبل وحيوانات الصحراء ومسالكها ومنازلها .

كلُّ ذلك لا أنكره فى الشعر العربى مهما اختلفت عصوره ، فهو يحتفظ بكثير من طوابعه البدوية الجاهلية مهما شَرَّقَ وغَرَّبَ وتقاربت أوطانه وتباعدت . ولكن ليس هذا هو الجانب الذى عُنيت ببحثه فى الشعر الأموى إنما عنيت بالجانب المقابل ، جانبِ التطور والتجديد فيه ، فهو مع محافظته على العناصر البدوية واستقرارها فى كيانه قد تطور وتجدد كما يتطور ويتجدد كل شعر يتحول من عصر إلى عصر ، وخاصة إذا كان العصر الجديد يختلف عن العصر القديم فى الدين والسياسة والحضارة والثقافة . لقد دخل العرب فى الإسلام وخرجوا من جزيرتهم واتصلوا بالأمم الأجنبية واتخذوا القصور والرقيق والجوارى وعلّموا من شئون الفكر ما لم يكونوا يعلمون كما عرفوا من شئون الحياة المادية ما لم يكونوا يعرفون . ولم يحدث ذلك خارج الجزيرة فقط ، فقد تغلغلت العناصر الحضارية فى الحجاز وفى المدينة ومكة حيث قامت أفواج كبيرة من الموالى على خدمة الحجازيين . فكان طبيعيًّا أن يحدث تطورٌ خطيرٌ فى حياة العرب داخليًّا وخارجيًّا ، وأن يتبع ذلك

تطورٌ واسع فى شعرهم، وهو تطور لم تُلْغَ فيه إلغاءً الأصولُ الفنية التقليدية الموروثة بل ظلت قوية بارزة .

فالشاعر الأموى لم يعش فى عالم فنى طليق من القيود والعناصر التقليدية القديمة، بل ظل متمسِّكًا بها شديد التمسك، ولكن مع إنمائها والملاءمة بينها وبين حياته المادية والمعنوية الجديدة ، فهو يخوض فيما يخوض فيه معاصروه ويواصل السير معهم فى ميادين التطور السياسى والاجتماعى والدينى والعقلى . وهذا هو ما عُنيت بالكشف عنه والتبصير به ، لسبب مهم ، وهو أن محافظة الشعر الأموى على السنن التقليدية الموروثة أوضحُ من أن تُبْحَثَ وأن تُفْرَدَ لها الكتبُ، إنما الذى يفتقر إلى البحث والكتب حقًّا هو مدى ما حدث فى هذا الشعر من تطور وتجديد .

وقد رجعت إلى دواوين الشعراء فى العصر ونصوصهم المختلفة ، فاستخرجت منها — ما استطعت — الأدلةَ والشواهدَ على أن احتفاظهم فى شعرهم بالأصول التقليدية لم يعقهم عن إدخال عناصر تجديدية كثيرة ، وهى تختلف فى العصر باختلاف البيئات والشعراء قوة وضعفًا وسعة وضيقًا . وإنما دفعنى إلى تفسيرها وتصويرها فى كتاب أننى وجدت مؤرخى الأدب العربى ونقاده لا يكادون يلمون بها فرأيت أن أبسط القول فيها ، حتى أزيل من الأفهام أن العصر الأموى كان عصرَ جمودٍ وركود فى الشعر وأن الشعراء فيه كانوا يحاكون الجاهليين محاكاة تامة ، فقد عبروا عن ذات أنفسهم وذات عصرهم وكل ما اضطربوا فيه من مذاهب دينية وسياسية وشئون حضارية مادية أو ثقافية. ولست أزعم أنى بلغت الغاية مما أردت من تفسير وتصوير للحقائق الفنية المستحدثة فى العصر ، إنما حاولت وبذلت الجهد . وقد أضفت إلى هذه الطبعة الثانية تمهيدًا عن الشعر فى صدر الإسلام، حتى تتضح خطوات التطور الأولى التى خطاها الشعر العربى قبل العصر الأموى ومدى سرعتها وبطئها . والله يهدى إلى سواء السبيل .

القاهرة فى أول فبراير سنة ١٩٥٩ .

شوقى ضيف

مقدمة الطبعة الأولى

يقومُ هذا البحثُ على أسُسٍ نظريَّة جديدة تناقضُ أشدَّ المناقضة ما استقرَّ فى نفوس الباحثين فى الشعر العربى من أن الطبقة التى كوَّنها هذا الشعر فى عصر بنى أمية تشبه تمام الشبه الطبقة الجاهلية ، إن لم تتَّحِدْ معها فى خصائصها الفنيَّة تمام الاتحاد . فالعربُ — فى رأيهم — استمروا ينْظِمون شعرهم بعد الفتوح الإسلامية ونزولهم فى الأوطان والأقاليم الجديدة خارجَ الجزيرة على شاكلة ما كان ينْظِمه أسلافهم ، حتى أرسل الله لهم الموالى فى العصر العباسى ، فطوَّروا لهم صورة شعرهم ، وجدَّدُوا فى إطارها وخطوطها وألوانها فنونًا مختلفة من التجديد .

ولا يعرف تاريخُ الشعرِ العربىِّ حُكْمًا جائرًا على حقائقه الأدبية مثل هذا الحكم الذى يجعل العرب أحجارًا ، يُنْقَلُونَ من مكان إلى مكان ، ومن عصر إلى عصر ، ومن طَوْرِ بداوة إلى طَوْر حضارة ، دون أن يتأثَّرُوا بما يصادفهم فى كل ذلك من مُؤَثِّرَات حضاريَّة وغير حضارية .

ولا رَيْبَ فى أن العرب ليسوا بِدْعًا من الأمم والشعوب ، بل هم كغيرهم يتطوَّرون ويتأثَّرون بالزمان والمكان وظروفهما ، سُنَّةَ الله فى خَلْقه ولن تجد لسُنَّة الله تبديلا . وشتَّانَ بين عربىِّ الصحراء القديمِ وعربىِّ العصرِ الأموىِّ الذى ورث كسرى وقيصر ، وخرج من صحرائه ، ونزل فى الشام والعراق وغيرهما من الأقاليم الإسلامية .

لقد كان العربىُّ القديمُ ساذَجًا فى حياته ووسائلها ومطالبها ، وكان أيضًا ساذجًا فى تفكيره ، بل كان لا يجد وقتًا كى يفكرَ فى الأشياء ، إذ كان مشغولاً دائمًا بالسَّعْى فى طلب قوته . أما عربىُّ العصرِ الأموى فكان يعيش فى حياة معقدة عقَّدَتْها الحضاراتُ الفارسيَّةُ والإغريقيةُ الرومانيةُ التى غزا أهْلَهَا واستعمرهم سياسيًّا ، وغزوه واستعمروه حضاريًّا وثقافيًّا . وقد أخذ يُفَكِّرُ فى الأشياء ويُطيل التفكيرَ ، بل أخذ يَحْتَرِفُ التفكيرَ احترافًا فى كل شئون حياته من سياسةٍ واقتصادٍ .

ومن المخالفة لطبائع الأشياء أن تكون الطبقةُ الفنيةُ التى كوَّنها الشعرُ العربىُّ فى هذه الحياة الجديدة مُمَاثِلَةً للطبقة الفنية الجاهلية تمامَ المماثلة ، فقد اختلفت الحياةُ فى ينابيعها ، وأصبح العربىُّ يعيشُ معيشةً جديدة ، ويقع تحت مُؤَثِّرَاتٍ دينيَّة وحضارية لم يكن يعرفها فى الجاهلية . ومن أجل ذلك كنا نزعم أن نفسيته تبدَّلت . وفَرْقٌ بعيدٌ بين نفسية وَثَنِىٍّ ونفسية مُسْلِمٍ يُؤْمِنُ بالله واليوم الآخر ، ويَسْتَشْعِرُ السعادة فيما يؤدّيه من تَقْوَى وعبادة . وفَرْقٌ بعيدٌ بين عقلية بدوىّ يعيشُ معيشة بسيطة فى الخيام لا يخضع لسلطان سوى سلطان القبيلة المحدود وعقلية حَضَرِىٍّ يعيشُ فى مَسْكَنٍ مستقرِّ البنيان ، ويخضعُ لضرورات الحياة فى الدول والمدن ، ويختلفُ إلى دور اللهو والغناء والموسيقى أو إلى دروس العلماء وحَلَقَاتهم فى المساجد حيث كانوا يغوصون فى بحار الفكر غَوْصًا ، وحيث فتحوا للناس أبواب البحث ، فى مشاكلهم السياسية والدينية والعقلية ، على مصاريعها .

والحقُّ أن الأدبَ العربىَّ لا يعرف فى تاريخه حُكْمًا فَائِلاً مثل هذا الحكم الذى يُنْكِرُ على العرب أن ينهضوا بشعرهم وفَنِّهم فى عصر بنى أمية ، كأن العرب قوم يَسْتَعْصُونَ على التحوُّل والتطوُّرِ ، مهما تكن التغيُّرَات والانقلابات التى تصادفهم فى حياتهم ، ومهما تكن الهزاتُ العنيفة التى تَمسّهم فى عقولهم وأفئدتهم .

ونحن لا نكاد نُلْقِى عنا هذا الحكم وما مَدَّ بين أعيننا وبين رؤية الحقائق الفنية لهذا العصر من حُجُب ، وندخلُ فى دراسة دواوين الشعر الأموية باحثين وناقدين محللين حتى نرى رَأْىَ العَيْن أننا ندخل فى عالم جديد مُبَايِنٍ أشدَّ المباينة وأوْضَحَهَا للعالم الفنى القديم ، عالمِ العصر الجاهلى .

ففى كل جانب من جوانب هذه الدواوين نجد ظواهرَ الحضارات الأجنبية ، بل ظواهرَ التَّرَف الذى غَيَّر ما بأنفُسِ العرب ، حتى ليتحولُ الغزل عند ابن أبى ربيعة عن طبيعته المألوفة ، وهى غزلُ عاشق يصفُ حُبَّه لمعشوقته ، إلى طبيعة جديدة ، هى غزلُ معشوق يصف حبَّ المرأة العاشقةِ له . وبجانب ابن أبى ربيعة نجد ضريبةَ الانغماس فى الترف عند الوليد بن يزيد مبتدعِ فَنِّ

الخَمْرِيَّة فى العربية قبل أبى نُواس وأضْرَابه من العباسيين .

وكان الإسلام يضىء نفوسَ العرب بتعاليمه ، وتتعمَّق أشعةُ هذه التعاليم قلوبَهُم ، فتغيرت مثاليَّتُهم فى الحياة ، وظهر ذلك بَيِّنًا واضحًا فى مدائحهم وأهاجيهم ، إذ نرى الصفاتِ الدينيةَ تتلألأ فى قصائدهم ، فهم يُضْفونها على ممدوحيهم ، ويخلعونها عن مهجوِّيهم . وقد زَهِدَ فريقٌ فى حُطَام الدنيا ، فتحوَّل يَتَبَتَّل إلى ربه ، ويُناجيه فى شعره ، أو يهجو إبليس ويُحَذِّرُ من الوقوع فى حبائله .

ونهضت الحياةُ العقليةُ فى هذا العصر نهوضًا واسعًا ، كان من آثاره أن عَمَّت موجةٌ من المناظرات فى حقائق الأشياء دينيَّةً وغير دينية . وتحت تأثير هذه المناظرات أَلَّف جرير والفرزدق والأخطل نقائِضَهُمْ فى الدفاع عن قبائلهم أو عن قبائل أخرى ومهاجمة الخصوم ودَمْغ حُجَجِهم . ولم تكن مناظرات جادَّةً ، إنما كان يُرَاد بها قَطْعُ الفراغ الهائل الذى واجهه العربُ حين استقرُّوا فى الكوفة والبصرة وكَفَتهم الدولة أرزاقهم ، فلم يعرفوا كيف يُمْضُون أوقاتهم ، وإذا جرير وصاحباه يحوِّلون الهجاء القديم إلى هذه النقائض ليسلوهم بها ، وليقطعوا لهم أوقات فراغهم . وكانوا يخرجون للفُرْجَة عليهم ، وخاصة على جرير والفرزدق ، كما نخرج نحن الآن لاستماع المناظرات فى مشاكلنا الاجتماعية ، أو كما نخرج لتمضية بعض الوقت فى دور التمثيل والخَيَالة .

وخَطَا الكميتُ بالمناظرة والجدال خطوةً أخرى إذ كان شيعيًّا على مذهب زَيْد بن على بن الحسين ، وكان فى الوقت نفسه تلميذًا لواصل بن عطاء مؤسِّسِ الاعتزال ومُنْشِئِه . فألَّف على هَدْىِ أستاذه وعَقْلِه واحتجاجِه أوَّلَ دفاع فى تاريخ النحْلَةِ الزيدية ونِحَل الشيعة عامة ، ولم يكتب هذا الدفاعَ نثرًا ، وإنما كتبه شعرًا فى ديوانه المسمى بالهاشميات .

وكانت المدرسةُ اللغوية بالبصرة أخذت تُؤْتِى ثمارها ، فأعدَّت طائفةً من الشعراء لتصنع لها شعراً يُعينها على بحوثها اللغوية ، أو على الأقل أَلْهَتْهُمْ ذلك . وبَرَع فى هذا الجانب رُؤْبَة بن العَجَّاج ، فكان يتعمَّق الغريب والوحشىَّ الشارد فى اللغة ، وكان يَعْتَمِدُ على حسِّه وسليقته العربية فى نَحْتِ

الألفاظ واشتقاقها وتحريف صورتها فى حروفها وحركاتها . وبذلك كانت أراجيزه متونًا لغوية ، وكانت أقدمَ صُورة من صُوَرِ الشعر التعليمى فى العربية .

ونجد فى هذا العصر شاعرًا يبرِّز فى وصْف الطبيعة تبريزًا بديعًا ، وهو ذو الرُّمَّةِ الذى نشأ فى الصحراء ، ثم نزل فى البصرة والكوفة ، فتلقَّن ما كان بهما من ثقافات . وشُغِف بصحرائه القديمة ، فعاش يَرْحَلُ إليها ، يتأمَّل فيها ، ويُصَوِّرُ فى جمالها وسحرها تصوير الهائم المفتون . وبهذا الهُيام دَبَّجَ لوحاتٍ رائعةً لصحرائه ، تنفصل انفصالا عن أشعار من سبقوه من الجاهليين ، وهى لوحات تتداعى فيها الألفاظ والصور تداعيًا غير مترابط ، وهو تداعٍ يجعل شعره فى كثير من جوانبه رُؤًى وأحلامًا بهيجة .

ولعلَّ فى هذا كله ما يدلُّ أصدقَ الدلالة على أن العرب لم ينتظروا إلى العصر العباسى ليجدّدَ لهم الموالى شعرهم ويُحْدِثوا فيه فنونًا مختلفة من التطوُّرِ به ، بل لقد سبقوا إلى ذلك فى العصر الأموى ، إذ أحسوا إحساسًا عميقًا واضحًا أنهم امتدادٌ لقديم ونهوضٌ بجديد ، فاستمرَّ فى شعرهم كثيرٌ من التقاليد الأدبية الموروثة ، وفى الوقت نفسه اندفعوا يُمَثِّلُونَ هذا الجديدَ وما انطوى فيه من تَطَوُّر اندفاعًا شديدًا .

والصفحاتُ التاليةُ من هذا البحث تَبْسُطُ ما حدث من ذلك التطوُّرِ والتجديدِ فى الشعر الأموى ، بحيث كان نتيجة طبيعية لهذا القانون المعروف ، قانون الفعل ورد الفعل ، فروحُ العصرِ الأموى ، ومزاجُه ، وحضارته ، وسياسته ، وثقافته ، وكلُّ ما اتصل به ، ماثلٌ فيه مُصَوَّرٌ أدقَّ تصوير . والله ولىُّ التوفيق .

القاهرة فى ١٢ من يناير سنة ١٩٥٢ — شوقى ضيف

تمهيد

الشعر فى صدر الإسلام

١

الإسلام

أخرج الإسلامُ العربَ من ظلمات حياتهم الجاهلية الوثنية المادية إلى أضواء حياة روحية سماوية تَعْنُو فيها الوجوهُ للحَيِّ القَيُّوم الذى خلق السموات والأرض وما بينهما ، إله قوى عزيز وَسِعَتْ قدرتُه ورحمته كل شىء . إنها حياة رَبَّانية جديدة فُرِضَتْ فيها فروض وواجبات دينية من مثل الحج والزكاة وصوم رمضان والصلاة فى أوقات معلومة ، وقد حُرِّمتْ فيها جملة الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، من مثل الزنا والخمر ، ومَنْ عمل صالحًا فلنفسه ومن أساء فعليها ، فإن وراءَ هذه الحياة الدنيا حياة أخرى يُحْشَرُ فيها الناس ليحاسَبوا على أعمالهم ، فيعاقبوا أو يثابوا عليها ، فمن يعمل مثقالَ ذَرَّةٍ خيرًا يَرَهْ ، ومن يعمل مثقال ذرة شرًّا يره ، فأما الأبرار فلهم الجنة والنعيم المقيم ، وأما العصاة فلهم النار والجحيم . ودأب القرآن الكريم يدعو إلى البر بالفقراء والمساكين وصلة الرحم وحسن الجوار والوفاء بالعهود والصبر فى الشدائد والعدل وكل ما هو خير .

وطبيعى أن يكون لهذه الحياة الدينية الجديدة أثرها البعيد فى العرب ، وخاصة فى صحابة الرسول من المهاجرين والأنصار فقد امتلأت قلوبهم بالإيمان ، وانتصبت أمام أبصارهم الجنة والنار ، فهم يراقبون الله فى كل ما يأتون من صغيرة وكبيرة ، يخشون عقابه ويرجون ثوابه ، فإنه (يعلم خائنةَ الأعين وما تخفى الصدور) (ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبَّةٍ فى ظلمات الأرض ولا رَطْبٍ ولا يابسٍ إلا فى كتاب مبين) .

وأفضى ذلك كله بالعربى الذى حسن إسلامه إلى قلق روحى عظيم ، فقد

أصبح خائفًا وَجِلاً من سلطان أعلى يسيطر على الكون والناس ، وهو سلطان حَدَّد حريته ، فلم تعد حرية مطلقة كما كان الشأن فى الجاهلية ، بل أصبحت حرية مقيدة بأوامر الدين الجديد ونواهيه . وليس هذا فحسب ، فهى حرية فى حدود حرية الآخرين ، فلا نهب ولا سلب ، ولا تفاخر بالأحساب والأنساب ، فكل الناس لآدم وآدم من تراب ، يقول جَلَّ وعز : (يا أيها الناس إنَّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) فلا عصبية ولا دعوة قبلية ، أو جنسية ، فالمؤمنون جميعًا من كل القبائل ومن عرب وغير عرب إخوة ، وجماعة واحدة ، ائتلفت تحت راية كبيرة هى راية الإسلام ودعوته أو شريعته ، بل دولته ، وهى دولة قد نُقِلَ إليها حَقُّ الأخذ بالثأر من الفرد والقبيلة ، فهى التى ترعى حقوق الأفراد ومصالحهم ، وهم جميعًا متعاونون على الخير ، أذِلَّةٌ على المؤمنين أعِزَّةٌ على الكافرين رُحَماء فيما بينهم ، يأخذ قويهم بيد ضعيفهم ، لا يتحاربون ، بل يتناصرون ويتآزرون .

وكل هذه مثالية روحية سامية ، ولكن هل استقرت فى نفوس العرب جميعًا بصورة واحدة ؟ الحق أن الناس ليسوا سواء فى التدين ، منهم من يتعمقه الإيمان ، ومنهم من لا يتعمقه مثل بعض الأعراب الذين وصفهم القرآن بقوله تعالى : (الأعراب أشد كفرًا ونفاقًا وأجدرُ أن لا يعلموا حدودَ ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم ، ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مَغْرَمًا ويتربَّص بكم الدوائر ، عليهم دائرةُ السَّوْء ، والله سميع عليم) . وأكبر الدلالة على ذلك حروب الردة فإن بعض هؤلاء الأعراب سارعوا إليها بمجرد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، لهذا السبب وهو أن الإسلام لم يتغلغل فى ضمائر كثير منهم وقلوبهم ، وقد رَدَّهم أبو بكر إليه بعد حرب مريرة . وربما كان مرجع ذلك إلى أنهم كانوا يبالغون فى التمسك بسنة الآباء .

وكل ذلك معناه أن العرب لم يكونوا سواء فى تقبل الدعوة الإسلامية ، ومن غير شك كان أكثرهم قبولا لها المهاجرون والأنصار ممن عاشوا بجوار الرسول وتلقوا عنه مباشرة تعاليمه . أما الأعراب فعلى الرغم من أن الرسول وخلفاءه أقاموا بينهم مَنْ يعلمهم كتاب الله وسنة نبيه وما شرَع الإسلام من فروض دينية ، فقد ظل نَفَرٌ منهم بعيدين عن روح الإسلام ، فهى لا تتعمقهم إلا قليلا .

٢

الشعر فى عصر الرسول صلى الله عليه وسلم

كان لهذا الانقلاب الدينى الذى مسّ حياة العرب من جميع الوجوه الروحية والاجتماعية والسياسية أثره المحقق فى حياة الشعر والشعراء ، فقد وقف شعراء المدينة مع الرسول يذودون عنه بألسنتهم ويناضلون عنه بأشعارهم ، بينما وقف فى الصفوف المقابلة شعراء مكة والطائف يردون عليهم ويحمسون قومهم ضد الرسول ودعوته . ولم تكن مكة تُعْرَف فى الجاهلية بشعر ولا شعراء ، وكأن هذا الانقلاب الروحى الخطير أتاح الفرصة لكى يظهر فيها شعراء ، لولا الحوادث الجديدة ما ظهروا ولا عُرفوا مثل ضِرَار بن الخطاب الفهرى وعبد الله بن الزِّبَعْرَى والحارث بن هشام وأضرابهم ممن نجد أسماءهم منثورة فى السيرة النبوية لابن هشام ، وهم الذين نزلت فيهم الآيات الكريمة : (والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم فى كل واد يَهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون ، إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرًا) .

وواضح أن القرآن الكريم إنما يهاجم الشعراء الوثنيين ، أما الذين اتبعوا هَدْيه وآمنوا برسوله فإنه يستثنيهم ، بل إن الرسول ليدفعهم دفعًا إلى نصرته ، إذ يقول لحسان بن ثابت : « اهْجُ قريشًا فوالله لهجاؤك عليهم أشد من وقع السِّهام فى غلَس الظلام ، اهجهم ومعك جبريل روح القدس »[1] . وعلى نحو ما أظهرت خصومة الرسول شعراء جددًا لم يكونوا معروفين فى مكة كذلك أظهرت فى المدينة شعراء لم يعرفوا بالشعر قبل الإسلام مثل عبد الله بن رواحة .

وإذا رجعنا نقرأ فى شعر المكيين وجدناه لا يختلف فى شىء عن الشعر الجاهلى لسبب طبيعى ، وهو أنهم كانوا لا يزالون على دين آبائهم ، يقدسون السُّنن الجاهلية التى ورثوها فى الشعر وغير الشعر ، وحقًّا نُسبت إلى أمية بن أبى الصلت شاعر ثقيف وعدو الإسلام ورسوله أشعارٌ كثيرة تفيض بروح الديانات السماوية وقصصها الدينى ، ولكن لا شك فى أنها نُحلت عليه ، إذ نجد فيها نفس المعانى التى

---

(١) العمدة لابن رشيق (طبعة القاهرة سنة ١٩٢٥) ج ١ ص ١٢ .

ساقها القصاص فى تفسير الذكر الحكيم . وقد زعم « هيار » أنه اكتشف فيها مصدرًا للقرآن الكريم[١]، ولو صح ذلك لأعلنه أمية نفسه فى عصر الرسول وتناقلته الرواة وأصحاب الأخبار ، والصحيح أنه كان عدوًّا للإسلام ولمحمد صلى الله عليه وسلم وأنه لا يمكن أن يقال إنه تأثر بالقرآن كما لا يمكن أن يقال إن الرسول تأثر به ، إلاّ ما يزعمه خصوم الإسلام ، وإنهم ليتعلقون كما قلنا بشعر منحول ، وُضع على لسان أمية وَضْعًا ، ويظهر أنه وَضْعٌ قديم ، فقد روى الجاحظ فى كتاب الحيوان أطرافًا منه .

على كل حال ليس فى شعر المكيين ولا فى شعر غيرهم ممن حادُّوا الله ورسوله أىُّ تأثر بالقرآن الكريم ودعوته ، لسبب واضح وهو أنهم لم يؤمنوا به ولا بهَدْيه ، وهناك قصيدة تُنْسَبُ إلى الأعشى فى مديح الرسول ، وفيها أثارة من الإحساس برسالته كما نرى فى قوله[٢] :

نبيٌّ يرى مالا تــرون وذكرهُ أغارَ – لعمرى – فى البلاد وأنْجَدَا

وأكبر الظن أنها موضوعة . وليس معنى ذلك أن الأعشى لم يحاول مديح الرسول الكريم ، ففى أخباره أنه فعلاً فكر فى الوفادة عليه مادحًا له وأن قريشًا علمت بذلك فردَّته عن غايته ، إذ ذكرت له أن محمدًا يحرم الخمر والزنا والقمار ، فانصرف عن الذهاب إليه ، وتوفِّىَ الأعشى عقب ذلك ولم يدخل الإسلامُ قلبه .

أما شعراء المدينة الذين نافحوا عن الرسول الكريم ودعوته ووقفوا يرمون خصومه المكيين وغيرهم بسهام شعرهم وقذائف أبياتهم فإننا حين نقرأ ما نظموه من شعر نجد كثرته – وخاصة عند حسان – تُنْظَمُ فى ضوء الصورة الجاهلية ، ونقصد صورة الهجاء القائمة على بيان الضعة فى الأنساب والعجز عن حماية الجار والقعود عن الثأر والفرار من الحرب وغير ذلك من معانى الهجاء التى كان يدور فيها الشعر الجاهلى . وفى الأغانى : « كان يهجو قريشًا ثلاثة نَفر من الأنصار

---

(١) المجلة الآسيوية ج ١٠ ق ٤ (١٩٠٤) ص ١٢٥ وانظر ترجمة أمية فى دائرة المعارف الإسلامية .

(٢) ديوان الأعشى طبعة جاير ، القصيدة رقم ١٧ ، وانظر الأغانى (طبع دار الكتب) ج ٩ ص ١٢٥ .

يجيبونهم : حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة ، فكان حسان وكعب يعارضانهم بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر ويعيّرانهم بالمثالب ، وكان عبد الله بن رواحة يعيّرهم بالكفر وينسبهم إليه ويعلم أنه ليس فيهم شرٌّ من الكفر ، فكان فى ذلك الزمان أشدُّ شىء عليهم قولَ حسان وكعب وأهونُ شىء عليهم قولَ ابن رواحة ، فلما أسلموا وفقهوا الإسلام كان أشدُّ القول عليهم قولَ ابن رواحة[١] » .

وأسبابٌ مختلفة اجتمعت لتظل للهجاء عند حسان وكعب معانيه القديمة ، إذ كانت متمكنه من نفسيهما ، وكانت هى المعانى التى تؤذى نفوس أعداء الإسلام من قريش ، ولو أنهما هجياهم بكفرهم وعنادهم أو توعداهم النار لما كان لذلك وقع عليهم ، فهم لا يؤمنون بنار ولا ببعث ، وهم يفتخرون بكفرهم ويعتزون بأنهم متمسكون بدين آبائهم . فكان طبيعيًّا أن يهجوهم حسان وكعب بما يعدونه حقًّا هجاء ، مما يتصل بالأنساب والأحساب ، وبالوقائع والهزائم التى يُصليهم الرسول وأصحابه نيرانها . وقد وجه الرسول نفسه حسّانًا هذه الوجهة إذ قال له : « اذهب إلى أبى بكر فليحدثك حديث القوم وأيامهم وأحسابهم ، ثم اهجهم وجبريل معك[٢] » ، وكأن الرسول يعرف أن هجاءهم بضلالهم لا يُجدى ، وهم أنفسهم يهجون بالمثل الجاهلية المأثورة فى الهجاء ، ومهمة شعرائه أن يناقضوهم ، ولو أنهم عيّروهم بعبادة الأصنام مثلاً لسخروا منهم لأنهم فعلاً يعبدونها ويتخذونها زُلْفَى إلى ربهم ، ويقدمون لها الأدعية والقرابين . وليس معنى ذلك أننا لا نجد عند حسان أى أثر للإسلام ، إنما معناه أن هذا الأثر لم يتسع عنده ، ومن يرجع إلى ديوانه يجد فيه شعاعات إسلامية مختلفة كقوله فى رثاء حمزة عم الرسول حين قُتل فى موقعة أحُد ، يذكر مصيره ومصير قتلى قريش[٣] :

وإن جنانَ الخُلْد منزلُه بها ... وأمر الذى يقضى الأمورَ سريعُ
وقتلاكمُ فى النار أفضلُ رزقهم ... حميمٌ معًا فى جوفها وضَريع[٤]

(١) أغانى (طبعة الساسى) ج ١٥ ص ٢٨ وانظر (طبعة دار الكتب المصرية) ج ٤ ص ١٣٨ .
(٢) أغانى ج ٤ ص ١٣٨ .
(٣) ديوان حسان طبعة أوربا) القصيدة رقم ١٧٥ .
(٤) الحميم : الماء الحار ، والضريع : نبات كريه خبيث .

وقوله — إن صح أنه له — (١) :

ونعلم أن الله لا ربَّ غيرُه وأن كتابَ الله أصبح هاديا

وقوله (٢) :

فأنزل ربى للنبيِّ جنُودَهُ وأيَّده بالنَّصْرِ فى كل مَشْهدِ

وتتسع هذه المعانى الدينية عند عبد الله بن رواحة ، غير أنه لم تكن له شاعرية حسان الذى ذاع اسمه فى الجاهلية ، حتى عُدَّ من شعرائها البارزين .

على كل حال لم يحدث فى هذه الفترة انقلاب فى هجاء المسلمين للمشركين بتأثير الإسلام ومثاليته إلاَّ فى حدود ضعيفة . ويتضح ذلك بالمقارنة بين هجائهم ومثالية القرآن الكريم فى الهجاء ، فهو لا يقذف فى الأعراض ولا يتوعَّد بغارة تُسْبَى فيها الأطفال والنساء وتسيل الدماء ، وإنما يتوعَّد بعذاب النار . وقد يعرض للمنافقين فيصور نفاقهم وكذبهم على المسلمين وتثبيطهم عن حرب الكافرين فى غير مساس بأعراضهم ولا عمد إلى شتم وسباب ، ويتلطف معهم فيدعوهم إلى التوبة والأسْوة بالرسول والمؤمنين الصادقين ، وهو مهما قسا عليهم فلن يزيد على وصفهم بأنهم لا يفقهون (وإذا رأيتهم تعجبْك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خُشُبٌ مسنَّدة ، يحسبون كل صيحة عليهم، هم العدوّ فاحذَرْهم ، قاتلهم الله) . وهكذا الوعيد والهجاء فى القرآن ليس سبًّا ولا شتمًا ولا قذفًا فى الأعراض . ولم يتحول هجاء حسان وشعراء الرسول إلى هذه الصورة القرآنية الجديدة بل ظل غالبًا فى حدود الصورة الجاهلية القديمة ، إلاَّ خيوطًا إسلامية متناثرة ، ولكنها لم تؤثر فى النسيج العام تأثيرًا واسعًا .

وهذا نفسه نلاحظه فى المديح ، فقد كان حسان وغير حسان يمدحون الرسول الكريم بالشجاعة والسعة فى الكرم والبطش بالأعداء والوفاء بالعهود ، وكأنهم يمدحون ملوكهم وسادتهم القدماء . وقد اشتهر كعب بن زهير بقصيدة نظمها فى مديح

---

(١) ديوان حسان ، القصيدة رقم ١٩ . (٢) ديوان حسان ، القصيدة رقم ٤٥ .

obeikandl.com

الرسول ، وهى القصيدة التى يستهلها بقوله[١] :

بانَتْ سُعادُ فقلبي اليومَ مَتْبولُ   متيَّمٌ إثْرها لم يُفْدَ مَكْبُولُ

ويستطرد فى الغزل ،ويخرج منه إلى وصف الناقة على الطريقة الجاهلية ، حتى إذا استوفى ذلك أخذ يعتذر إلى رسول الله من سقطة له فى هجاء أخيه بُجَيْر حين أسلم من قبله ، وقد جاء يتنصَّل من عثرته ويعلن إسلامه ويمدح الرسول ودعوته ، ومع ذلك فلولا ما جاء فى القصيدة من قوله :

أنبئتُ أن رسولَ الله أوعدنى   والعفوُ عند رسول الله مأمولُ

مَهْلاً هَداك الذىأعطاك نافلةَ الـ   قرآن فيها مواعيظٌ وتَفْصيل

إن الرسولَ لنورٌ يُسْتَضاء به   مهنَّدٌ من سيوف الله مسلولُ

لما عرفنا أنها فى مديح الرسول ، ولتبادر إلينا أنها فى مديح سيد من سادة القبائل فهو يمدح الرسول بالشجاعة والظفر بأعدائه كما يمدح المهاجرين من قريش بالقوة ، وشدة المراس وإباء الضيم ، وأنهم يلبسون الدروع السابغة فى القتال ، ولا يفرحون بنصر ولا يجزعون من هزيمة ، بل يترامون على حياض الموت تراميًا . وتبلغ به العصبية القديمة فى المديح أن يعرِّض بالأنصار فى غير موضع من قصيدته ، وكأنه يمدح محمداً القرشى وقبيلته من قريش ، لا محمداً الرسول الذى هدم العصبية القبلية ، والذى آثر بعد فتح مكة المقام مع الأنصار على قومه .

وقد حسن إسلام كعب وأخذ يصدر فى أشعاره عن هدى الإسلام ، على نحو ما يتضح ذلك فى ديوانه[٢] ، وهى ظاهرة تعم فى أشعار كثيرين من مثل قول الحصين المُرِّىّ[٣] :

أعوذ بربىِّ من المخزيا   تِ يوم ترى النَّفسُ أعمالها

وخفَّ الموازينُ بالكافرين   وزُلْزِلتِ الأرضُ زِلْزالها

(١) انظر ديوان كعب (طبع دار الكتب) ص ٦ وما بعدها ، وبانت : فارقت ، ومتبول : سقيم ، ومكبول : مقيد .

(٢) انظر ديوان كعب ص٢٢٨ وما بعدها .

(٣) أغانى (طبعة دار الكتب) ١٤/١٥ .

obeikandi.com

وقول النَّمِر بن تَوْلب(١) :

أعِــذْنى رَبًّ من حَصَرٍ وعِيٍّ ومن نَفْسٍ أعالجهــا علاجــا

وعلى هذا النحو لا تزال تلقانا اشعاعات إسلامية مختلفة عند من بايعوا الرسول بالإسلام ، ومن المؤكد أن هذه الإشعاعات كانت تسيل على ألسنة أهل المدينة بأكثر مما كانت تسيل على ألسنة النجديين .

٣

الشعر فى عصر الخلفاء الراشدين

وقف الهجاء بين المدينة ومكة وبينها وبين العرب ، فقد دخلوا جميعا فى دين الله ، وحقًّا حدثت حروب الردة فى عصر أبى بكر ، ولكن سرعان ما انطفأت نيرانها ، واتجه العرب إلى الفتوح ، فقضوا على الدولة الفارسية واستولوا على أهم إقليمين يتبعان الدولة البيزنطية وهما مصر والشام .

وفى هذه الأثناء لم تعد ترتفع أصوات المكيين بالشعر ، فقد انتهت الحروب التى كانت تثيره ، وكذلك الشأن فى المدينة ، إلا بعض قصائد وأشعار تنظم فى مناسبات كبيرة كأن يُتَوَفَّى خليفة فيرثيه حسان أو غير حسان بصورة من التأبين يمازجها شىء من مثالية الإسلام وما يدعو إليه من تقوى الله والعدل فى الناس .

وإذا تركنا المدينتين الكبيرتين فى الحجاز إلى نجد وفيافيها التقينا بشعراء الأعراب وكان منهم نفر لم يتعمقهم الإيمان ولم يمس قلوبهم إلا قليلا ، وخير من يمثلهم الحطيئة تلميذ زهير فى صقل الشعر وتنقيحه ، فإنك لاتكاد تجد عنده اختلافا فى شعره بين ما نظمه منه فى الجاهلية والإسلام ، وكان أحد من

---

(١) أغانى (طبعة الساسى) ١٩/١٦٢ .

obeikandi.com

سارعوا إلى الردة ، وهجا أبا بكر ببيتين مشهورين[١]، ثم دخل فيما دخل فيه العرب ثانية، دخل فى الإسلام وحَسُنَ إسلامه ، ولكنه كان كثير الشَّرِّ ، فأكثر من هجاء الأشراف ، حتى اضطر عمر إلى حبسه ، ولم يطلق سَراحه إلا بعد أن أخذ عليه المواثيق أن يكفَّ أذاه عن الناس .

وبجانب الحطيئة شعراءُ كثيرون حسن إسلامهم وسقطت إلى أشعارهم خيوط كثيرة من مثالية الإسلام وروحانيته ، ومن أشهرهم الشَّمَّاخ وله ديوان مطبوع مثل الحطيئة ، وهو فيه كثير الهجاء والوصف للقوس والحُمُرِ، وأجملُ ما أثر عنه أبياتٌ نظمها فى رثاء عمر بن الخطاب ، حين امتدت إليه يد أبى لؤلؤة المجوسى الآثمة فى الظلام ، وطعنته طعنة مسمومة ، لقى بها ربه ، وفيها يقول[٢] :

جَزَى الله خيرًا من إمامٍ وباركتْ يَدُ الله فى ذاك الأديم الممزقِ
فمن يَسْعَ أو يركبْ جناحَىْ نعامةٍ ليُدْرِكَ ما حاولتَ بالأمس يُسْبَقِ
قَضَيْتَ أمورًا ثم غادرتَ بعدها بَوَائقَ[٣] فى أكمامها لم تُفَتَّقِ

وهو يدعو لعمر أن يجزيه الله خيرًا عما قدَّمت يداه لرعيته وأن يبارك أديمه الممزق بسكين أبى لؤلؤة ،وانتقل يتحدث عن سيرته فى المسلمين وتفقده اليقظ لشئونهم، وأنه أحكم أمورهم ، وقد خلف موته دواهى لا تزال فى أكمامها لم تفتق . وواضح أنه يصور الكارثة فيه تصويرًا قويًّا .

وقد أخذت روحانية الإسلام تتعمق فى نفوس أهل نجد . ولعل خير من يصور ذلك لبيد والنابغة الجعدى ، فأشعارهما تفيض بمواعظ كثيرة ، وقد قصر لبيد نفسه على تلك المواعظ يتغنى بها مخوفًا من كارثة الموت ويوم الحساب وداعيًا إلى التقوى والعمل الصالح بمثل بيته المشهور :

ألا كلُّ شيءٍ ما خلَا الله باطلُ وكلُّ نعيمٍ لا محالةَ زائلُ

وتجرى أضواء الإسلام فى أشعار النابغة ، وقد روى ابن قتيبة فى ترجمته له بكتابه الشعر والشعراء موعظة بارعة يتحدث فيها عن خلق السموات والأرض وخلق الإنسان والبعث والقرون البائدة والأمم الخالية ، وهو حديث يستمده مباشرة

---

(١) أغانى (طبع دار الكتب) ج ٢ ص ١٥٧ .
(٢) أغانى ج ٩ ص ١٥٩ .
(٣) بوائق : فتن وشرور .

من آى الذكر الحكيم . ولم يلبث العرب أن خرجوا من جزيرتهم يجاهدون فى سبيل الله ودينه الحنيف ، وقد نظموا حينئذ كثيرًا من الأشعار الحماسية .

واقرأ فى الطبرى وفى فتوح البلدان للبلاذرى فستجد الشعر على كل لسان ، وستجد الروح الدينية تنفذ فيه نفوذاً قوياً ، فالشاعر يتغنى بشجاعته وبما قتل من أعدائه ، ويلم بفكرة الجهاد الدينى فى الحين بعد الحين على نحو ما نرى فى هذه المقطوعة التى جرت على لسان قيس بن المكشوح المرادى عقب قتله لرستم قائد الجيوش الفارسية فى موقعة القادسية إذ يقول[1] :

جَلَبْتُ الخَيْلَ من صَنعاء تَرْدى[2] ... بكل مُدَجَّجٍ كالليث سامِ
إلى وادى القُرى فديارِ كلْبٍ ... إلى اليرموك فالبلد الشآم
وجئْن القادِسِيَّةَ بعد شهرٍ ... مسوَّمة دوابرُها دوامى[3]
فناهضنا هنالك جَمْعَ كسرى ... وأبناء المَرازِبَةِ[4] الكرام
فلما أن رأيتُ الخيل جالتْ ... قصدتُ لموقف الملك الهمامِ
فأضربُ رأسه فهوَى صريعًا ... بسيف لا أفلَّ ولا كهامِ[5]
وقد أبْلَى الإلهُ هناك خيرًا ... وفعلُ الخير عند الله نامى

واللمسة الدينية واضحة فى نهاية المقطوعة . وعلى هذا النحو شعر الفتوح كله ، لا تزال تلقانا فيه هذه اللمسات التى يتصايح بها الشعراء معبِّرين عن حُسْن بلائهم فى سبيل إعلاء الدين الحنيف ، ويقال إنه كان لأوس بن مغراء قصيدة عدد فيها بلاء العرب فى الفتوح ، وفيها يقول :

محمدٌ خَيْرُ من يمشى على قَدَمٍ ... وكان صافيةً لله خُلْصَانا

وقد شاعت الإشعاعات الإسلامية فى أشعار كثيرين من الفاتحين وغير الفاتحين ، فمن ذلك أننا نقرأ لسُوَيْد بن أبى كاهل اليشكرى وصفًا طويلا للمنافق فى قصيدته رقم ٤٠ فى المفضليات وقد امتد هذا الوصف من البيت ٦٧ إلى ٩١ وهو

---

(١) فتوح البلدان للبلاذرى (طبعة ليدن) ص ٢٦١ .

(٢) تردى الخيل : ترجم الأرض بحوافرها .

(٣) مسومة : معلمة ، والدوابر : العراقيب ، ودوامى : ملطخة بالدم .

(٤) المرازبة : رؤساء الفرس .

(٥) أفل : منثلم ، وكهام : كليل لا غناء فيه .

obeikandi.com

فيه يتأثر بصورة المنافق فى القرآن الكريم تأثرًا واضحًا كما يتأثر بما جاء فيه عن الغيبة والمغتابين . ونجد عَبْدَة بن الطبيب يوصى أبناءه بتقوى الله وبر الوالد والحذر من النمَّام الذى يبث الضغائن حتى بين الإخوة ، يقول(١) :

أوصيكمُ بتُقَى الإلــه فإنه ... يُعْطى الرغائبَ من يشاء ويَمْنَعُ
وببرِّ والدكم وطاعــة أمــرهِ ... إن الأبرَّ من البنين الأطْوَعُ
واعصوا الذى يُزْجِى النمائمَ بينكم ... متنصِّحًا ، ذاك السِّمامُ المُنْقَعُ

وعبدة هذا كان ممن شهدوا حروب العرب مع الفرس وأبْلى فى موقعة القادسية بلاء حسنًا وله قصيدة يصف فيها موقعة المدائن(٢) ذكر فيها جهاده وجهاد قومه للفرس ، بمثل قوله :

يقارعون رءوسَ العُجْمِ ضاحيــةً ... منهم فوارسُ لا عُزْلٌ ولا مِيلُ(٣)

ونراه يحدثنا عن هجرته مع قومه للجهاد وأنهم يبتغون بذلك ثواب الله ، يقول :

نرجو فواضلَ ربٍّ سَيْبُهُ حَسَنٌ ... وكلُّ خيرٍ لديه فهْو مقبــولُ

وقد ختم القصيدة بوصف طويل لمجلس شراب ، ويظهر أنه كان للقصيدة أصل جاهلى أضاف إليه عبدة بعد إسلامه وجهاده حديثه عن موقعة المدائن . وهى ظاهرة لا تلاحَظ فى هذه القصيدة وحدها ، بل تلاحظ أيضًا فى شعر نفر من المخضرمين ، إذ نجدهم يسوقون فى بعض قصائدهم الإسلامية الخمر التى حرمها الإسلام. ولعل فى كل ما قدمنا ما يصور أثر الإسلام فى شعر المخضرمين وأنه لم يكن أثرًا ضئيلا ، كما زعم بعض الباحثين من المستشرقين وغير المستشرقين . ومن المحقق أن فى هذا الزعم مخالفة صريحة لطبيعة الأشياء فما كان العرب ليؤمنوا ويطلبوا الاستشهاد فى سبيل دينهم الحنيف ، ابتغاء رضوان الله ، ويظل الإسلام بعيدًا عن نفوسهم وأشعارهم ، وما الشعر إلا مرآة لناظميه وتعبير عن خوالجهم وكل ما يعتقدونه ويؤمنون به . ومرجع هذا الزعم فى رأينا أن أصحابه لم يطلعوا اطلاعًا كافيًا على نصوص الشعر فى هذا العصر ، وهى تفيض كما رأينا بأضواء الإسلام التى كان المخضرمون يصدرون عنها صدور الضوء عن الشمس الساطعة .

(١) المفضليات (طبع دار المعارف) ص١٤٦ .
(٢) المفضليات ص ١٣٤ .
(٣) عزل : جمع أعزل وهو من لا سلاح معه ، والميل : جمع أميل وهو من لا ترس معه ، والجبان .

obeikandl.com